● المبحث الثالث : مآل الأقلية الأخروى :

لاشك أن المآل الأخروى هو الهدف الأساسى الذى يسعى كل الأنبياء والمصلحين للفوز بخيره المطلق الذي يبدأ من نعيم الجنة ولذاتها إلى النظر فى وجه المولى تبارك وتعالى، فالمآل الأخروى لكل ذى عقل هو الثمرة التى لا يتعب من جناها خيراً، ولا يشقى من ذاق طعمها جنة.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾

[طه: ١١٩]

والنص الذى يجدد المآل الأخروى لجميع الفئات البشرية الصالحة منها والطالحة هو قول الله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا * وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١ - ١٦].

هذه الآيات تبين أن البشرية تصنف باعتبار سعيها إلى ثلاثة مستويات:

١- أصحاب الميمنة

٢- أصحاب المشأمة.

٣- السابقون المقربون.

ولكن الآيات هنا تجمل ليأتى التفصيل فى المآلات، ولاشك أن المآلات مختلفة تبعا للأفعال، ولذلك سيكون مآل أصحاب الميمنة غير مآل أصحاب المشأمة، وغير مآل السابقين المقربين، لأن التصنيف تابع لطبيعة العمل كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢].

أما أصحاب الميمنة فهم أهل الجنة لقوله تعالى بعد ذلك فى السورة

نفسها: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٤٠].

واللفظ صريح فى كون هذه الفئة من الأقلية، إذ أنها لاتزيد عن ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، لأن الثلة في اللغة تعنى الجماعة والفرقة المقتطعة من الشيء فهى ثلث الشيء أى قطعته(١)، وقيل: «الثلة اسم للجماعة من الناس مطلقا قليلا كانوا أو كثيرا»(٢)، ولكن السياق العام للقرآن يبين أن الثلة تعنى الشيء النفيس والعزيز الذى يقل وجوده لنافسته، وإن كانت الثلة أكثر من الأقلية داخل دائرة الصالحين كما سيتضح من بعد، حين نحلل آية السابقين.

وأما أصحاب المشأمة، وهم أصحاب الشمال، فهم أهل النار لقوله تعالى فى السورة نفسها: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٨].

فهذا هو مآل أصحاب الشمال، جهنم يصلونها بما كانوا يكسبون من الآثام بسبب الترف، وبكفرهم بالبعث، وهؤلاء بحكم السياق القرآنى كله الأكثرية المطلقة كما رأينا فى المآل الأخروى للأكثرية، ولذلك سكت القرآن هنا عن التحديد بالثلة أو القلة.

وتبقى الفئة الثالثة وهم السابقون الذين هم طبقة أفضل من الطبقتين السابقتين، ولذلك قدمهم القرآن عند التفصيل بقوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤].

---

(١) القرطبى: الجامع...: ٢١/ ٢٠١.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٨٩.

والنص هنا صريح فى دلالته على أنهم يمثلون الأقلية القليلة من أجل الجنة، ولهذا يتعين أن فئتين فى الجنة هما أصحاب اليمين والسابقون إلى الخيرات، وفئة واحدة فى النار وهى فئة أصحاب الشمال والمشأمة، قال الصابونى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ «وكنتم - أيها الناس، أصنافا وفرقا ثلاثة، أصحاب اليمين وأهل الشمال وأهل السبق، فأما السابقون فهم أهل الدرجات العلى فى الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار، وهذه مراتب الناس فى الآخرة»[١].

ولاشك أن كون فئتين من أهل الجنة وفئة ثالثة من أهل النار، يوحى بأن أهل الجنة أكثر عددا حتى قال أحد القدماء: «اثنان فى الجنة وواحد فى النار»[٢].

والواقع ليس كذلك تماما، إذ أن النصوص القرآنية والحديثية تبين أن نسبة أهل النار تفوق نسبة أهل الجنة بكثير جداً، كما رأينا فى مصير الأكثرية قبل[٣]، وإنما الآيات هنا فى سورة الواقعة هى بصدد بيان مآل الإنسانية، فبينت أن الجزاء يكون وفق العمل، فبدأت الآية فى التفصيل بالسابقين فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ثم أعقبت بأصحاب اليمين فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ وثلثت بأصحاب الشمال فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، فهذه مآلات ثلاثة، طائفتان مآلهما الجنة وطائفة مآلها النار، وقد جمعت سورة الواقعة هذه المآلات الثلاثة فى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ

---

(١) صفوة التفاسير: ٣/٣٠٦. (٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٨٣.
(٣) أنظر الفصل السابق من الباب السادس.

الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٣ – ٩٦]، غير أن هذا لا يعنى أن نسبة أهل الجنة أكثر من نسبة أهل النار، وإنما يعنى أن أهل الجنة يتفاضلون بحسب الإحسان في العمل، وفى ذلك حث على التنافس على الخير ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

إن هذا التنافس هو الذى ميز طائفتين من أهل الجنة هما: السابقون وأصحاب اليمين، وأدى فضلا عن التمييز إلى اختلاف نسبة أصحاب اليمين عن نسبة السابقين، إذ قال بصدد الحديث عن السابقين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ وقال بخصوص أصحاب اليمين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾، ومن الواضح أن لفظ (الثلة) يدل على نسبة أكثر من نسبة (قليل)، وهذا يبين أن نسبة أصحاب اليمين أكثر من نسبة السابقين، والسبب فى ذلك يعود إلى أن منزلة السابقين هي منزلة المقربين الذين ينالون هذه الحضرة عند الله بفضل السبق إلى الخيرات كما بين ذلك تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، قال ابن كثير «المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمِرُوا»[١]، وقال «من سابق فى هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان»[٢].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن السبق هنا له دلالة زمنية وليست دلالته دلالة سبق فى الفعل فقط كما بينا[٣]، والواقع أن الأمر ليس كذلك، إذ فى كل زمان يوجد أهل الخير، وفى كل وقت يوجد المتسابقون على فعل الخيرات فيفوز بالسبق أصحاب الاجتهاد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولم يتوانوا فى نصرة الإسلام، فكانوا السابقين إلى الفعل والسباقين إلى الشهادة فى سبيل الحق وهؤلاء

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٨٣.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٤ / ٢٨٣.

السباقون إلى فعل الخيرات هم المقربون كما بينت الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم الأبرار كما بينت آية أخرى من سورة المطففين: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ – ٢٨] فالأبرار هم الطائفة الفاعلة كل خير[١]، وعليه فهم يستحقون نتيجة ذلك أن يكونوا فى ﴿عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ يتنعمون فيه مع المقربين بما كانوا يتنافسون فيه من عمل الخيرات، ومن هنا كان التنافس على النعيم الأخروى إيجابيا فى الدنيا، لأنه تنافس فى فعل الخيرات، «فالتنافس فى نعيم الآخرة لا يدع الأرض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين، إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار من الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق، على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله"[٢].

ومن كل ذلك يتبين أن السابقين لفعل الخير درجة من الاجتهاد ينالها ذووا العزم والإرادة القوية، والتى تتشكل من الإيمان العميق والعلم الدقيق الذى ينزل صاحبه منزلة أهل الوعى من الفقهاء العاملين، وهذه الدرجة لا ينالها فعلا إلا الأقلية، لنفاستها ولحاجتها إلى الجهد الذى لا يقوى عليه إلا القليل.

على أن الآية تبين أن نسبة السابقين تنقسم إلى قسمين؛ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ فمن هم الأولون ومن هم الآخرون؟ ولماذا كانت نسبة الأولين (ثلة) أعلى من نسبة الآخرين (قليل)؟

لاشك أن الدلالة هنا تحمل البعد الزمنى، ولذلك ذهب بعض المفسرين إلى أن الثلة الأولى يعنى بها السابقين إلى الخيرات من الأمم الماضية قبل عهد محمد ﷺ، ويقصد بالقليل من الآخرين أمة محمد ﷺ، وعلل القرطبى ذلك بقوله:

---

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٠ / ٣٨٥٨.　　(٢) نفسه ص ٣٨٦٠.

«سموا قليلا بالإضافة إلى من كان قبلهم، لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا»[1]، وهذا التعليل منطقى جدا، ولعله المقصود بقول الرسول ﷺ: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم فى النصف الثانى»[2] ويمكن لمن يتأمل واقع الحياة المعاصرة أن يدرك أن نسبة أهل الخير من المسلمين أكثر من نسبة أهله فى سائر أهل الكتاب فضلا عن الأمم المشركة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العاملين الأساسين فى تقييم الأعمال وهما الإيمان والعمل الصالح، إذ من الواضح أن المؤمنين من أهل الكتاب يفتقرون - على مستوى العقيدة - إلى الإيمان بالرسل كلهم والإيمان بالكتب كلها، فينتهى المؤمنون من بنى إسرائيل عند الإيمان بموسى عليه السلام والتوراة، وينتهى المؤمنون من المسيحيين عند الإيمان بعيسى عليه السلام والإنجيل، بينما يؤمن المسلمون بكافة الأنبياء والرسل، ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ والكتب كلها تصديقا لما أمرهم به الله، وبيّنه رسولهم محمد ﷺ بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»[3].

وعلى مستوى الأعمال نرى الآن فى العالم الغربى برمته، وبدون استثناء أعمالا وسلوكات لا تنم عن خير على مستوى الشرع مطلقا، وإن أظهروا تفوقا كبيرا على مستوى المدنية وما تستتبعه من أسباب العمران المادى، أما جانب الشرع فقد أعلنوا جهارا اعتمادهم مبدأ (فصل الدين عن الدولة)، مما شجع الأنام على الانحراف الخلقى انحرافًا عجيبًا، يمكن أن يكون مؤشرًا واضحًا للدلالة على أن نسبة الضلال فى مجتمع أهل الكتاب من غير المسلمين تفوق كل تصور.

وإذا كان ذلك كذلك فمن الطبيعى أن يكون معنى الآية ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ يشير إلى النسبة الحاصلة من مجموع البشرية فى زمن

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٠٠. (٢) نفسه.
(٣) الترمذى: الجامع الصحيح ٥ / ٨ / الحديث رقم ٢٦١٠.

الرسول ﷺ، وزمن ما بعده، ولما كان الإيمان بالرسول ﷺ واجبا على كل من أدركته الرسالة الإسلامية، فقد نستنتج من ذلك أن أمة محمد ﷺ ليست هى من اتبعه فقط، ولكن هى كل من أدركته الدعوة آمن أو لم يؤمن، والحديث فى ذلك واضح إذ روى مسلم فى باب «وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته» عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(١) وقال أيضا «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران»(٢)، وأحسب أن هذا الحديث يمكن أن يكون تفسيراً لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحديد: ٢٨]، قال ابن عاشور: «احتمل قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...**﴾ أن يكون مستعملا استعماله اللقبى أعنى: كونه كالعلم بالغلبة على مؤمنى ملة الإسلام، واحتمل أن يكون قد استعمل استعماله اللغوى الأعم، أعنى من حصل منه إيمان، وهو هنا من آمن بعيسى، والأظهر أن هذين الاحتمالين مقصودان ليأخذ خلص النصارى من هذا الكلام خطابهم وهو عودتهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ ليستكملوا ما سبق من اتباعهم عيسى فيكون الخطاب موجها إلى الموجودين ممن آمنوا بعيسى، أى يا أيها الذين آمنوا إيمانا خالصا بشريعة عيسى اتقوا الله واخشوا عقابه واتركوا العصبية والحسد وسوء النظر وآمنوا بمحمد ﷺ»(٣) وهذا معنى عالمية الرسالة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ [سبأ: ٢٨] وهو معنى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٩٢ كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

(٢) نفسه.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٤٢٧.

وإذا صدق هذا التفسير فإنه من الممكن أن نبنى عليه فهمنا لتفسير حديث آخر، أخطأ جل المسلمون فى تقديره فقسموا الأمة فرقا مختلفة يكفر كل واحد منها غيره، والحال أنهم جميعا مؤمنون لأنهم يؤمنون بأركان الإيمان كلها جميعا سنيهم وشيعيهم وما الاختلاف بينهم إلا اختلاف فى وجهات نظر سياسية ترجع للاجتهادات ليس أكثر، ومع ذلك فقد أدت إلى تقاتل شنيع حتى أصحاب المذاهب الفقهية، من الحنفية والشافعية فخربت من جرائه كثير من مدارس المذهبين، وأحرقت خمس خزائن للكتب[1].

والحديث الذى نعنيه هنا هو قول الرسول ﷺ: «ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أهله علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلهم فى النار إلا ملة واحدة قالوا: ومن هى يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابى»[2].

فمن هى أمة محمد ﷺ؟ ومن الفرقة الناجية من هذه الأمة.

إن لفظ (الأمة) فى هذا الحديث فُهم على أنه يعنى (الأتباع) وهو ليس كذلك، إنما يعنى الشعوب التى أدركها نبى من الأنبياء، فيصبح بهذا المعنى أمة موسى هم الشعوب التى بلغتها دعوة موسى عليه السلام آمنت أو لم تؤمن بها، وأمة عيسى عليه السلام هى الشعوب التى أدركت دعوته آمنت أو لم تؤمن بها، بما فى ذلك قوم موسى عليه السلام، وأمة محمد ﷺ هى كل أهل الأرض الذين بلغتهم رسالته آمنوا به أو لم يؤمنوا، فالأمة فى هذا الحديث لا يمكن أن تعنى الأتباع، وإنما تعنى كل الناس الذين سيحاسبون على شريعة محمد ﷺ، وهى بطبيعة الحال كل الأمم التى بلغتها الرسالة، والدليل على ذلك يوجد فى الحديث نفسه، إذ أنه ﷺ قد حدد الفرقة الناجية من الأمة بمواصفات تقوم على مبدأ

---

(١) ابن كثير: الكامل فى التاريخ ١١ / ٢٧٢ دار صادر (د.ت) وانظر نفسه ١١ / ٥٦١.
(٢) الترمذى: ٥ / ٢٦ الحديث رقم ٢٦٤١، رواه الترمذى وقال حديث مفسر غريب.

الاتباع فقال: «ما أنا عليه وأصحابى» ونحن نعلم أنه دعى فى ذلك الوقت نفسه بنى إسرائيل، وبلغت الدعوة النصارى فى الحبشة، وكاتب ملوك الروم والفرس، وهؤلاء جميعا سيحاسبون على أساس دين الإسلام فمن كان منهم على ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد نجا، ومن خالفه كان فى الفرق الأخرى غير الناجية، عددها اثنتان وسبعون فرقة، هى فرق الإنسانية من غير المسلمين المؤمنين برسالة محمد ﷺ، ويؤكد ذلك فكرة تناسخ الأديان، وقد أشار إليها عنوان الموضوع فى صحيح مسلم بقوله: «وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته».

والدليل على ذلك أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى عن أبى ذر قال: «قلت يا رسول الله سمعت صوتا تخوفت فذكرت له فقال: وهل سمعته؟ قلت: نعم قال: «ذاك جبريل أتانى، فقال، من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق»(١)، فلفظ الأمة هنا عام، يشمل كل من بلغه خطاب رسول الله ﷺ، ولكن النجاة من النار قصر على من مات من أمة الرسول ﷺ وهو على ملة التوحيد (لا يشرك بالله شيئا)، ويؤكد ذلك حديث آخر رواه البخارى قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى دخل النار»(٢)، فلفظ الأمة هنا واضح الدلالة على ما فسرنا به الحديث السابق من أن أمته تعنى كل البشرية بعد مبعثه ولا تعنى فقط أتباعه، ولذلك كانت الجنة هنا لمن اتبع رسول الله ﷺ ولم يعصه، والنار لمن أبى الطاعة وآثر العصيان سواء أكان من بنى إسرائيل أو النصارى أو المجوس أو غيرهم من المشركين، ويؤيد ذلك بوضوح حديث رواه البخارى فى صحيحه عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، فقيل يا رسول الله: كفار الروم؟ فقال ومن الناس إلا أولئك»(٣)،

---

(١) صحيح البخارى ٤ /١٩٧ الحديث رقم ٦٤٤٤، وانظر رقم ٦٤٤٣، ٦٢٦٨.

(٢) نفسه ٤ /٤١٢.

(٣) صحيح البخارى: ٤ /٤٢٤ الحديث رقم ٧٣١٩.

وفى رواية: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا، وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصاري؟ قال فمن»[1].

فانظر إلى لفظ الأمة فى ذلك الحديث لتتبين أنه يعنى الجيل الذى حضر الرسالة منذ أن جاءت إلى أن تقوم الساعة، لأن صاحبها خاتم الأنبياء والمرسلين، وانظر إلى لفظ (القرون) هنا كيف استخدم فى مقابل لفظ (الأمة) وانظر إلى الاتباع كيف يفرض نفسه فى زمن الأمة ليدل على أن اتباع كفاز الروم، كما فى الحديث الأول، وأتباع اليهود والنصارى كما فى الحديث الثانى إنما هم الذين سلكوا طريق الكفر فى زمن الأمة المحمدية الممدود إلى قيام الساعة، وهذا أمر يبينه حديث آخر أكثر وضوحا فى تحديد مفهوم الأمة تحديدا زمنيا، فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط، ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين فغضب اليهود والنصارى، فقالوا نحن أكثر عملاً، وأقل عطاء، قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: فإنه فضلى أعطيه من شئت»[2].

فالأجل المحدد لأمة موسى عليه السلام ينتهى عند منتصف النهار حيث يبدأ أجل أمة عيسى عليه السلام لينتهى عند العصر، حيث يبدأ أجل أمة محمد ﷺ وهو زمن بعثته حتى تقوم الساعة.

---

(١) نفسه ٤ / ٤٢٤ الحديث رقم ٧٣٢٠ وانظر الحديث رقم ٣٤٥٦.
(٢) نفسه ٢ / ٤٠٤ الحديث رقم ٣٤٥٩.

ولما كان أجل أمة محمد ﷺ يعنى هذا الأجل المحدد فمن البدهي أن يكون له أتباع مؤمنون، وهم قليل، بالنسبة لأمته التي بلغت فى عصرنا الحديث ما يربو عن ستة ملايير ليس منها سوى مليار مسلم والبقية كلها على الكفر، ولعلها المقصودة بقوله ﷺ «لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[١]، وفى رواية «لا يزال من أمتى قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله»[٢]، وفى أخرى «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»[٣].

فالتعبير بلفظ (طائفة) فى الحديث يدل عن جزء من (الأمة) ولذلك جاء في رواية بمرادفه (قوم) وهم الموحدون جميعا بدون أى استثناء يقوم على النظرة الحزبية أو المذهبية التى أشغلت بعض العلماء فابتعدوا عن التأويل العلمى الصحيح لهذا الحديث، فتسببوا عن غير قصد فى تقسيم المسلمين فرقا مختلفات تبعا لأهوائهم، يحكمون على بعضهم البعض بالكفر ويحددون مآلهم الأخروى بالنار فى مقابل (الفرقة الناجية) التي لم يفهموها بسبب فهمهم غير الصحيح لدلالة لفظ (الأمة) التي فسروها بأنها تعنى (الأتباع) بينما هى تعنى (الجيل الرسالى).

وليس أدل على ذلك من قوله: «لا يزال أمة من أمتى..» فاستثنى أمة صغيرة هى أتباعه الموحدون من أمته الكبرى التى هى كل من سمع به آمن أو لم يؤمن.

ولعل الحديث الآتى يبين المآل بشكل أدق وأوضح، فقد روى البخارى أنه ﷺ قال: «ينادى مناد، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب ثم

---

(١) نفسه ٤/٤٢٢ الحديث رقم ٣٧١١. (٢) نفسه ٤/٤٦٣ الحديث رقم ٧٤٥٩.
(٣) صحيح البخارى: ٤/٤٦٤ الحديث رقم ٧٤٦٠.

يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير بن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون؟ فيقولون نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله؟ فيقال كذبتم، لم يكن له صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون، نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم، وقد ذهب الناس؟ فيقولون فارقناهم ونحن أحوج منا إليهم اليوم، وإنا سمعنا مناديا ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا، قال فيأتيهم الجبار، فيقول: أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا؟ فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقولون: هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب سيما فيعود ظهره طبقا واحدا ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم.. فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار، وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم، يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا ويعملون معنا فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه دينارا من إيمان فأخرجوه..»[1].

فهذا الحديث يبين مآل الأقلية من البشرية كلها، فيجعلها في الجنة بسبب التوحيد في مقابل مآل الأكثرية، وهم أهل النار بسبب الكفر والشرك، مما يبين أن المعيار الأساسي في بيان أهل النجاة من أهل النار إنما هو الإيمان والعمل الصالح، ويبين ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٤٥٥ - ٤٥٧ - الحديث رقم ٧٤٣٩.

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٣].

بهذه الصيغة كان يتعامل أهل الكتاب، ويتراشقون بالتهم المبنية على الظن فى أمور وضحتها الكتب السماوية تماما وبينت المعيار الذى ينبغى الاحتكام إليه وهو إسلام الوجه إلى الله والإحسان فى العمل، أى الإيمان والعمل الصالح.

على أن الإيمان لابد أن يكتمل، فإذا كان اليهود مثلا يؤمنون بالله وملائكته ويؤمنون بالآخرة ولكن ينتهون فى الإيمان بالكتب والرسل عند سيدنا موسى والتوراة ويكفرون بمن بعده، والنصارى يتوقف إيمانهم عند سيدنا عيسى والإنجيل ويكفرون بمن بعده فإن هذا يعد إيمانا غير مكتمل، ومن ثم تصبح نسبة المؤمنين يوم القيامة قليلة جدا، ولعله لذلك فسر بعض العلماء قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

بأن مقصود الإشارة إلى أن الذين كانوا قد آمنوا بالأنبياء والرسل من اليهود والنصارى مدعوون للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الذى جاء به ليكتمل إيمانهم، فإن امتنعوا فقد كفروا، لأن الإيمان لا يعرف التبعيض الذى هو من صنع الهوى، يقول ابن عاشور: وصْفُ المخاطبين بأنهم آمنوا وإردافه بأمرهم بأن يؤمنوا بالله ورسله إلى آخره يرشد السامع إلى تأويل الكلام تأويلا يستقيم به الجمع بين كونهم آمنوا وكونهم مأمورين بإيمان، ويجوز التأويل خمسة مسالك منها -:

المسلك الأول: تأويل الإيمان فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأنه إيمان مختل منه بعض ما يحق الإيمان به، فيكون خطاب لنفر من اليهود آمنوا، وهم عبدالله بن سلام وأسد وأسيد ابنا كعب.. سألوا النبى ﷺ أن يؤمنوا به وبكتابه، كما آمنوا بموسى وبالتوراة، وأن لا يؤمنوا بالإنجيل كما جاء فى رواية الواحدى عن الكلبى، ورواه غيره عن ابن عباس.

المسلك الثانى: أن المقصود بأمرهم بذلك إما زيادة تقرير ما يجب الإيمان به، وتكرير استحضارهم إياه حتى لا يذهلوا عن شيء منه اهتماما بجميعه، وإما النهى عن إنكار الكتاب المنزل على موسى وإنكار نبوءته، لئلا يدفعهم بعض اليهود وما بينهم وبينهم من الشتات إلى مقابلتهم بمثل ما يصرح به اليهود من تكذيب محمد ﷺ وإنكار نزول القرآن، وإما أريد به التعريض بالذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله ورسله ثم ينكرون نبوءة محمد ﷺ وينكرون القرآن حسدا من عند أنفسهم ويكرهون بعض الملائكة لذلك، وهم اليهود، والتنبيه على أن المسلمين أكمل الأمم إيمانا، وأولى الناس برسل الله وكتبه، فهم أحرياء بأن يسودوا غيرهم لسلامة إيمانهم من إنكار فضائل أهل الفضائل، ويدل لذلك قوله: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ** ﴾ ويزيد ذلك تأييدا أنه قال: ﴿ **وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾ فعطفه على الأشياء التى من يكفر بها فقد ضل مع أنه لم يأمر المؤمنين باليوم الآخر فيما أمرهم به، لأن الإيمان به يشاركهم فيه اليهود فلم يذكره فيما يجب الإيمان به، وذكره بعد ذلك تعريضا بالمشركين[1].

ويمكن أن يكون معنى الآية يا أيها الذين آمنوا بمحمد ﷺ من خلال ما جاء من تبشير به فى التوراة والإنجيل آمنوا به، وبما جاء به الآن فعلا ليكتمل إيمانكم فتنجوا من عذاب الآخرة، وتكونوا عندئذ من الفرقة الناجية.

ونستنتج من ذلك كله أن أمة محمد غير أتباعه، فأتباعه جزء من أمته، وعليه فإن المقصود بالفرقة الناجية هم الأتباع جميعا وهم من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وآمن بما جاء به، ولا دخل للمذاهب السياسية فى ذلك، لأن المذاهب جاءت تنظيما لشؤون المسلمين معتمدة على المناهج العلمية التى يدخلها الاجتهاد فى الأمور كلها بما فى ذلك المسائل السياسية، وللأسف فقد كان الاجتهاد فى تحديد صور الحكم السياسى وأنظمته سببا فى تأويل الأحاديث، فبدلا من التركيز على الرجل الصالح الذى تتوفر فيه شروط القائد

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٢٩ - ٢٣٠.

الناجح، توجهت التحليلات وجهة أخرى غير علمية، وغير موضوعية، بل هى قائمة على التعصب، وكانت المبالغة فى التعصب للفكرة السياسية سببا قويا ودافعا خطيرا للتكفير والتصنيف والتقسيم غير العلمى لقيامه على الهوى.

ولاشك عندى أن العلماء فى العصر الحديث يملكون كافة المعطيات العلمية التى تعينهم على إعادة النظر فى المنهج كى يضعوا المعايير الصحيحة للتصنيف، وسيصلون فى النهاية إلى توحيد الصف الإسلامى من جهة العقيدة.

وقد توقف غير واحد من المعاصرين عند هذا الحديث مستغربا، حتى قال أحد الباحثين بعد عرض أوجه الاختلاف فى فهم الحديث: «إن هذه الفرق والطوائف لم تختلف فيما بينها فى أصل من الأصول المتفق عليها أو أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولكنها اجتهادات وآراء لم تمس جوهر العقيدة - هذا باستثناء الفرق الغالية الشاذة - ولم تؤد إلى التكفير وكل هذه الفرق يشملها اسم الإسلام وهى من أهل القبلة، فكيف يحكم الحديث بهلاكها، وأنها فى النار؟ هذه هى المشكلة»[1].

وسيبقى أمر المذاهب السياسية نسبيا؛ لأنه تابع لنجاح الأمة فى اختيار القائد أوعدم نجاحها فى ذلك طبقا للتجربة السياسية التى تمارسها، فتجربة السعودية غير تجربة إيران وهذه غير تجربة مصر والجزائر، وغير تجربة الإمارات العربية المتحدة، وتجربة بريطانية غير تجربة فرنسا وأمريكا.. فاختيار الرجل الصالح هو الأساس، بغض النظر عن أسلوب الاختيار ومرتكزاته، إذ هذا يقوم على تجارب الأمم والشعوب، وهذا واضح فى دول الشرق والغرب على حد سواء، إذ أن الهدف من اختيار المنهج والحاكم إنما هو تحقيق الخيرات، وهذه مرهونة بالحكمة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) جمال فاروق جبريلى محمود الدقاق: الاختلاف فى المسائل الدينية مجالاته ودعائمه الخلقية: ٤٨.

● وخلاصة القول:

إن مآل الأقلية على المستوى الدنيوى هو الاستخلاف فى الأرض، بسبب الإيمان والسبق للعمل الصالح، إذ لا شك أن العمل الصالح هو مبرر القوة والغلبة الحضارية والعسكرية، ومآل الأقلية على المستوى الأخروى هو دخول النعيم، والنجاة من الجحيم، وأن سبب كون الناجين من النار هم الأقلية إنما يعود لكون الجنة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح، والبشرية غرها الشيطان والحسد فضلت من جهة العقيدة ضلالا بعيداً بحيث كفر بعضها كفراً كاملا، وهذا هو الملحد وكفر بعضها ببعض الأنبياء والكتب كبنى إسرائيل، وكفر بعضها بمحمد ﷺ والقرآن الكريم وهم المسيحيون، وبذلك كثر عدد الكفار وقلت نسبة المؤمنين، فكانت الجنة مآل الأقلية من المؤمنين، ثم إن المؤمنين منهم السابقون إلى الخيرات ومنهم المقصرون، فكان منهم من يذوق العذاب بسبب التقصير فى الأفعال، ثم يدخل الجنة فى درجة دنيا، وكان منهم من يدخل الجنة بسبب قلة اجتهاده فى السبق إلى الخيرات، وهؤلاء يمثلون النسبة الكبرى وهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (إلى قوله) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾، وكان منهم من يدخل أعلى عليين وهم المقربون، لأنهم كانوا سبَّاقين لفعل الخيرات، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾.

وقد لاحظنا أن فهم حديث الفئة الناجية فهما خاطئا أدى إلى انقسام المسلمين إلى طوائف يكفر بعضها بعضا ويقاتل بعضها – نتيجة لذلك – بعضا، حتى فسدت العلاقات بين أهل المذاهب الفقهية ليس على مستوى الشيعة والسنة وحسب بل حتى على مستوى أهل السنة أنفسهم كالذى حدث بين الحنفية والحنابلة من تقاتل أدى لخراب نيسبور وكثير من المدارس الفقهية ومكتباتها(١).

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ١١ / ٥٦٢، ٥٦١، ٢٧٢.

في حين أن الفئة الناجية إنما هي تلك التي انطبق عليها قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، وهذا معيار لاعلاقة له بصناعة المذاهب الفقهية والسياسية بدليل أن المسلمين قبل عصور التمذهب كانت على قلب رجل واحد، نرجو من الله أن يجعلنا من صنف ذلك الجيل الرسالى الذى يقول لسانُ حاله: الله واحد، والكتاب واحد، والنبى واحد، فلم الخلاف؟

* * *